معالم القرآن والسنة
مجلة محكمة
السنة الخامسة، العدد السادس، ٢٠١٠

محي الدين بن هاشم

موقف الشاطبي من التفسير الإشاري

Abstract

Contrary to other methods of *tafsir* commonly applied and acknowledged by the Muslims, *tafsir al-ishari* extends beyond the literal meaning of the Arabic language, which is the language of the Quran. If not properly done within the stipulated conditions, it could confuse and mislead people from the true meanings of the Quran. As such, this paper delves into al-Shatibi's position on *tafsir al-ishari* and its rules of adoption. In particular, it focuses on discussing his views on *tafsir al-ishari* as adopted by some Sufis and comparing it to the exegesis of the Batiniyyah. This results in a clearer understanding of the acceptable form of *tafsir al-ishari* as understood and practiced by Muslims.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.

وبعـــــــد :

فالقرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التي لا يزيدها التقدم العلمي إلا رسوخا في الإعجاز، أنزله على رسولنا محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور،

ويهديهم إلى الصراط المستقيم. وعني المفسرون بتفسير الآيات القرآنية وخرجوا على الناس بتفاسير كثيرة. ومن هذه التفاسير التفسير الإشاري أو الفيضي.

وبناء على ذلك، إن من نعم الله تعالى العظيمة علي أن أشرف بتقديم هذا البحث إلى القراء الأعزاء لمعرفة موقف الشاطبي من التفسير الإشاري. هذا العالم الكبير الذي أسهم بنصيب وافر في عرض قضية التفسير الإشاري أو الفيضي عرضا قويا واضحا يجعل المسلم المعاصر يطمئن إلى دينه في هذا العصر.

وهناك أسباب ودوافع عديدة دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع للدراسة، ومن أهمها :

١ – الرغبة في التعمق في قضايا التفسير الإشاري من خلال هذه الشخصية.

٢ – من المعروف أن الشاطبي مشهور بأصول الفقه والعناية بمقاصد الشريعة. ومن خلال هذه الدراسة آمل أن يعرف الشاطبي بصفة أخرى ألا وهي أنه صاحب فكر في التفسير.

ويسعى البحث إلى تحقيق الهدفين :

١ – كشف فضل هذا العالم الذي شارك في إثراء الفكر الإسلامي وتطويره.

٢ – استجلاء أفكاره في توضيح قضايا التفسير وإبراز دوره في تحرير التفسير من الانحرافات وإزالة ما يعوقه عن مساره الصحيح.

وأما خطة البحث فاقتضت طبيعة الموضوع أن أقسم الدراسة إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة.

١ – في المقدمة، وضحت فيها موضوع البحث وأهميته، والأسباب والدوافع التي دفعت إلى تناوله ودراسته، وأشرت إلى الخطة التي سارت عليها الدراسة.

٢ – في المبحث الأول، عرضت لحياة الشاطبي وتتبعت نشأته وثقافته وجهودهما العلمية.

٣ – في المبحث الثاني، تحدثت عن آراء الشاطبي في التفسير الإشاري

٤ – في الخاتمة، ذكرت أبرز النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

المبحث الأول : حياة الشاطبي وثقافته

أود وأنا بصدد الحديث عن حياة الشاطبي وثقافته أن أشير — بإيجاز – إلى حياته من حيث الولادة والثقافة والجهود والمؤلفات والوفاة. وذلك ليعرف من هو الشخص الذي أتكلم عنه من حيث أفكاره في التفسير الإشاري.

ولادة الشاطبي ومكانها :

اسمه إبراهيم بن موسى بن محمد، ولقبه اللخمي الشاطبي، وكنيته أبو إسحاق.

ولم يعين المترجمون للشاطبي سنة ولادته ومكانها ولم يذكر عن أسرته إلا أن الدكتور أبا الأجفان يقدر أن الفترة التي ولد فيها كانت قبيل سنة ٧٢٠ هـ، استنتاجا من تاريخ وفاة شيخه أبي جعفر أحمد بن الزيات الذي كان أسبق شيوخه وفاة، فقد كانت سنة وفاته ٧٢٨هـ، وهي السنة التي كان فيها مترجمنا يافعا [١].

ولكن الدكتور حمادي العبيدي لا يتفق مع الدكتور أبي الأجفان في هذا الأمر؛ لأنه يرى أن ابن الزيات هذا لم يكن شيخا للشاطبي وإنما كان من أهل مالقة، يزور غرناطة بين الحين والحين، فيتحلق حوله الناس، مستمعين لمواعظه.

وعلى الرغم من ذلك، والذي أراه هو ما يرى الدكتور حمادي العبيدي أن مولد الشاطبي قريبا من سنة ٧٣٠هـ، ويستند في ذلك إلى أنه كان صديقا ندا للشاعر، الوزير ابن زمرك ‹ت ٧٩٣هـ› [٢] الذي ولد سنة ٧٣٣هـ، كما أن الشاطبي نفسه يذكر أنه في سنة ست وخمسين وسبعمائة كان صغير السن، وكان يومئذ تلميذا لابن الفخار الألبيري

---

١ – فتاوى الإمام الشاطبي : ٤٤.

٢ – هو أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن زمرك، كان يلقب بشاعر الحمراء، وقد كتب ديوان شعره على جدران قصر الحمراء. تولى ابن زمرك الحجابة والوزارة، والكتابة لبعض ملوك بني الأحمر، وقتل سنة ٧٩٣هـ. (الشاطبي ومقاصد الشريعة للدكتور العبيدي : ١٢)

‹ت سنة ٧٥٦هـ›[٣]، الذي كان معجبا بذكائه [٤].

ولم يذكر المترجمون أيضا مكان ولادته إلا أن ينسب أبو إسحاق إلى شاطبة، وهي مدينة شرقي الأندلس وشرقي قرطبة، ولم يشير إلى مكان آخر عاش به أو رحلة قام بها، وهذا ما استفدنا منه أنه ولد بغرناطة ونشأ وترعرع فيها إلى أن توفي بـــها [٥].

ثقافته :

لقد كانت ثقافة الشاطبي ثقافة واسعة. ويعرف هذا من خلال دراسته ونشاطه العلمي. وقد نهل ثقافته كلها في غرناطة، وذلك أن المترجمين لم يثبتوا له أسفارا ولا رحلات كما مر الكلام عنه، ولا يذكر هو أيضا شيئا من هذا القبيل.

وقد أقبل الشاطبي على الدراسة منذ صباه، ودرس علوم الوسائل وعلوم المقاصد، وأصول العلم وفروعها، دون أن يحصر اهتمامه في نطاق علم معين لا يتجاوزه. وقد فهم القرآن والسنة النبوية حق الفهم حتى يستطيع أن يميز بين الحق والباطل وأن يعمل على إحياء السنة وإصلاح الناس وتخليص الإسلام من البدع المنكرات. [٦]

وقد تلمذ الشاطبي للشيوخ المبـــرزين في عصره ، وكان لهم فضل كبير عليه وكما كان لهم بالغ الأثر في تكوين شخصيته وتزويده بفيض من المعارف العقلية والنقلية. منهم الغرناطيين ومنهم الوافدين على غرناطة. [٧] فمن شيوخه الغرناطيين :

١ – أبو عبد الله محمد بن الفخار الألبيري ‹ت سنة ٧٥٦هـ›. وكان شيخا للشاطبي في علوم اللغة والأدب والقراءات. وقد لازمه الشاطبي إلى أن مات. [٨]

---

٣ – هو أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن الفخار الخولاني البيري من مدينة البيرة الأندلسية، الإمام المجمع على إمامته في فن العربية المفتوح عليه من الله تعالى فيها حفظا واطلاعا واضطلاعا ونقلا وتوجيها بما لا مطمع فيه لسواه. (نفح الطيب للمقري:٥/٣٥٥)

٤ – الشاطبي ومقاصد الشريعة للدكتور العبيدي: ١٢-١٣.

٥ – فتاوى الإمام الشاطبي : ٤٤ والشاطبي ومقاصد الشريعة للدكتور العبيدي : ١٣.

٦ – الاعتصام للشاطبي: ١٣-١٤.

٧ – فتاوى الإمام الشاطبي : ٤٦.

٨ – انظر برنامج المجاري : ١/١٢٥، ونفح الطيب للمقري : ٥/٣٥٥، ونيل الابتهاج للتنبكتي : ٤٧.

٢ – أبو جعفر أحمد بن آدم الشقـــوري.[٩] كان شيخا للشاطبي في علم الفرائض والفقه على المدونة.[١٠]

٣ – أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لب ‹ت ٧٨٢هـ›. كان شيخا للشاطبي في فروع الفقه وعلمه طريقة في الإفتاء.[١١]

٤ – أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن محمد البلنسي الأوسي ‹ت ٧٨٢هـ›[١٢]. كان شيخا للشاطبي في اللغة والتفسير.[١٣]

٥ – أبو عبـــد الله محـــمد بن أبـــي الحجـــاج يوســـف بن محـــمد اليحـــصبي المعـــروف باللـــوشي،[١٤] وقد أجـــاز اللـــوشي الشاطبي إجازة عامة بشـــرطه. وكان شيخـــه في الأدب.[١٥]

وأما شيوخه الوافدون على غرناطة فمنهم :

١ – أبو عبد الله محمد بن أحمد المقري الكبير أو المقري الجد ‹ت ٧٥٩هـ›.[١٦] وقد تفقه الشاطبي عليه وسمع عليه جملة من كتابه تكميل التعقيب على صاحب التهذيب، وبعض نظمه ‹لمحة العارض تكملة ألفية ابن الفارض› في التصوف، وكتاب ‹القواعد الفقهية› له

---

٩ – هو الفقيه النحوي الفرضي الذي كان يدرس بغرناطة كتاب سيبويه، وقوانين ابن أبي الربيع، وتلخيص ابن البناء، وألفية ابن مالك، وفرائض التلقين، والمدونة الكبرى. (برنامج المجاري : ١/١٢٥).

١٠ – برنامج المجاري : ١/١٢٥، ونيل الابتهاج للتنبكتي : ٤٧.

١١ – برنامج المجاري : ١/١١٨، ونيل الابتهاج للتنبكتي : ٤٧.

١٢ – هو مؤلف تفسير وكتاب في مبهمات القرآن (انظر الإفادات والإنشادات للشاطبي : ٢١).

١٣ – نيل الابتهاج للتنبكتي : ٤٧، ومقدمة د/أبي الأجفان لكتاب الإفادات والإنشادات للشاطبي : ٢١.

١٤ – نشأ هذا الشيخ بلوشة وهي مدينة أندلسيه، تقع غربي غرناطة على بعد ٥٥ كلم. ولد سنة ٦٩٢هـ وتوفي بغرناطة. (برنامج المجاري : ١/١١٩، وانظر أيضا الإفادات والإنشادات للشاطبي : ٢١).

١٥ – برنامج المجاري : ١/١١٩.

١٦ – ولد بتلمسان، يقال إنه ارتحل إلى المشرق والتقي بابن قيم الجوزية، تلميذ ابن تيمية، عاد إلى المغرب واستقر بفاس، متوليا خطة القضاء بها، وفي سنة ٧٥٧هـ وفد على غرناطة سفيرا لدى أميرها من قبل ملك المغرب أبي عنان المريني. (انظر الإحاطة:٢/١٣٦، والشاطبي ومقاصد الشريعة للدكتور العبيدي : ٦٧-٧١).

أيضا، وجميع كتابه ‹الحقائق والرقائق› في التصوف، وأجازه به وبجميع ثلاثيات البخاري› وبكتب أخرى في الحديث والفقه والقراءات والعربية، وحدثه بأسانيده إلى مؤلفيها.[١٧]

٢ – أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسني السبتي ‹ت٧٦٠هـ›. [١٨] كان شيخا للشاطبي في فقه الأحكام، كما كانت لهذا الشيخ اهتمامات أخرى منها عنايته باللغة والأدب.[١٩]

٣ – أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني ‹ت ٧٧١هـ›.[٢٠]

٤ – أبو علي منصور بن علي بن عبد الله الزواوي ‹ت ٧٧١هـ› [٢١]، وهو فقيه نظار، قرأ عليه ‹منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل› للإمام أبي عمرو ابن الحاجب ‹ت ٦٤٦هـ› [٢٢] من أول مبادئ اللغة إلى آخره بلفظه إلا يسيرا منه سمعه بقراءة غيره، وأجازه إجازة عامة بشرطها.[٢٣]

---

١٧ – برنامج المجاري : ١١٩–١٢١، و نيل الابتهاج للتنبكتي : ٤٧، والإفادات والإنشادات للشاطبي : ٢٢.

١٨ – هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد الشريف أبو عبد الله الخشني السبتي النحوي العلامة، ولد بسبتة سنة ٦٨٧هـ ووفد على غرناطة، وتولى بها القضاء، وتوفي بها سنة ٧٦٠هـ، رئيس العلوم اللسانية وشارح مقصورة حازم القرطاجني (نفح الطيب للمقري : ١٨٩/٥ وبغية الوعاة للسيوطي : ٣٩/٢).

١٩ – نفح الطيب للمقري : ١٨٩/٥، نيل الابتهاج للتنبكتي : ٤٧، والشاطبي ومقاصد الشريعة للدكتور العبيدي : ٨٢.

٢٠ – هو أعلم أهل وقته، وإمام المالكية في زمانه، توفي سنة ٧٧١هـ (نيل الابتهاج للتنبكتي : ٤٧).

٢١ – وقد حل بغرناطة سنة ٧٥٣هـ قادما من تلمسان، ولد ببجاية سنة ٧١٠هـ. لبث بغرناطة ١٣ سنة، ثم عاد إلى تلمسان سنة ٧٦٥هـ وبها توفي في حدود سنة ٧٧١هـ.

٢٢ – هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر ابن يونس الدوني ثم المصري الفقيه المالكي المعروف بابن الحاجب الملقب جمال الدين كان والده حاجبا للأمير عز الدين موسك الصلاحي وكان كرديا، ولد سنة ٥٧٠ وتوفي سنة ٦٤٦هـ بالإسكندرية (وفيات الأعيان لابن خلكان : ٢٤٨/٣، والأعلام للزركلي : ٢١١/٤).

٢٣ – برنامج المجاري: ١١٩، ونيل الابتهاج للتنبكتي : ٤٧.

٥ – أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب التلمساني ‹ت٧٨١هـ› [٢٤]. وقد سمع عليه الشاطبي في مجالس بالمدرسة النصرية وبالجامع الأعظم كتابي : ‹الجامع الصحيح› للإمام البخاري ‹ت ٢٥٦هـ› [٢٥] و‹الموطأ› للإمام مالك بن أنس ‹ت ١٧٩هـ›.[٢٦] وأجاز شمس الدين بن مرزوق بهذين الكتابين وبجميع ما يحمل تلميذه الشاطبي إجازة عامة بشرطها.[٢٧]

ويمكن الاطلاع على أسماء شيوخ آخرين يذكرهم الشاطبي، أو يروي عنهم، وذلك في كتابه ‹الإفادات والإنشادات›.[٢٨]

يبدو أن الشاطبي تأثر في بعض آرائه تأثرا مباشرا ببعض هؤلاء الشيوخ. فيمكن أن يكون موقفه من التصوف امتدادا لآراء شيخه أبي عبد الله محمد بن أحمد المقري الكبير أو المقري الجد ‹ت ٧٥٩هـ›، كذلك يمكن أن نعد موقفه من الفقه وأصوله راجعا إلى تأثره بشيخه أبي عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب التلمساني ‹ت٧٨١هـ› وأبي علي منصور بن علي بن عبد الله الزواوي ‹ت ٧٧١هـ›. فهؤلاء جميعا قد أسهموا في صقل مواهبه الشخصية، كما أضافوا إليه ثروة من المعارف التي انتفع بها في تأليف كتبه القيمة مثل الموفقات والاعتصام، ويشاركهم في ذلك عدد كبير من العلماء والصوفية الذين امتلأ كتابه بالإشارة إلى أقوالهم وأحوالهم.

---

٢٤ – هو شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق، ولد بتلمسان سنة ٧١٠هـ، توفي بالقاهرة سنة ٧٨١هـ (الأعلام للزركلي : ٢٢٦/٦).

٢٥ – هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي أبو عبد الله البخاري جبل الحفظ وإمام الدنيا في فقه الحديث من الحادية عشرة مات سنة ٢٥٦هـ في شوال وله اثنتان وستون سنة (تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني : ٤٦٧/١).

٢٦ – هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك ابن أبي عامر عمرو بن حرث الأصبحي المدني، إمام دار الهجرة، ولد سنة ٩٥هـ، وتوفي سنة ١٧٩هـ (هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا : ١/٦).

٢٧ – برنامج المجاري : ١١٩، نيل الابتهاج للتنبكتي : ٤٧.

٢٨ – الإفادات والإنشادات للشاطبي : ٢٤-٢٦.

وبعد أن تحدثت عن ثقافة الشاطبي، أتحدث بإيجاز عن جهوده.

جهوده ونشاطه :

تولى الإمام الشاطبي خطة التدريس بغرناطة، وقد تخرجت على يديه ثلة من العلماء. وقد انتصب الشاطبي للتدريس بالجامع الأعظم بغرناطة، وكانت دروسه تتناول خمسة علوم وهي : الفقه والأصول والحديث والقراءات والنحو.[٢٩]

ويذكر تلميذه أبو عبد الله المجاري ‹ت٨٦٢هـ› بعض الكتب التي اعتمدها في تدريس هذه العلوم، فقد كان يدرس النحو من الكتاب لسيبويه ‹ت١٨٠هـ› [٣٠]، وبعض الشروح على ‹ألفية ابن مالك ‹ت٦٧٢هـ› [٣١]، ويعتمد في علم الحديث ‹مقدمة ابن الصلاح ‹ت٦٤٣هـ› [٣٢]، وأما القراءات فكان اعتماده فيها كتاب ‹التيسير› لأبي عمرو الداني ‹ت٤٤٤هـ› [٣٣]، وكان يعتمد في الفقه مصادر متنوعة، منها ‹الموطأ› للإمام مالك

---

٢٩ – برنامج المجاري: ١١٦ وما بعدها.

٣٠ – هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه، إمام النحاة وأول من بسط علم النحو، ولد سنة ١٤٨هـ في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة، وصنف كتابه المسمى ‹كتاب سيبويه› في النحو، ورحل إلى بغداد وعاد إلى الأهواز فتوفي بها سنة ١٨٠هـ، وقيل : وفاته وقبره بشيراز (وفيات الأعيان لابن خلكان: ٤٦٣/٣، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ١٩٥/١٢، والأعلام للزركلي : ٨١/٥).

٣١ – هو محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين، أحد الأئمة في علوم العربية، ولد سنة ٦٠٠هـ في جيان (بالأندلس) وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها سنة ٦٧٢هـ. أشهر كتبه ‹الألفية› في النحو. (نفح الطيب للمقري : ٢٢٢/٢، والوافي للوفيات للصفدي : ٢٨٦/٢-٢٨٨، وبغية الوعاة للسيوطي :١٣٠/١، والأعلام للزركلي : ٢٣٣/٦).

٣٢ – هو أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر النصري الكردي الشهرزوري المعروف بابن الصلاح الشرخاني الملقب تقي الدين الفقيه الشافعي ، محدث ومفسر ومؤرخ، له مصنفات عديدة، توفي بدمشق سنة ٦٤٣هـ. (وفيات الأعيان لابن خلكان : ٢٤٣/٣).

٣٣ – هو عثمان بن سعيد بن عثمان، أبو عمرو الداني، ويقال له ابن الصيرفي، ولد سنة ٣٧١هـ، من موالي بني أمية، أحد حفاظ الحديث، ومن الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره، من أهل دانية بالأندلس، دخل المشرق فحج وزار مصر، وعاد فتوفي سنة ٤٤٤هـ، له أكثر من مائة تصنيف، منها ‹التيسير› و‹الإشارة› وغير ذلك. (نفح الطيب للمقري : ١٣٥/٢، والأعلام للزركلي : ٢٠٦/٤).

‹ت ١٧٩هـ›، و«المدونة» لسحنون ‹ت ٢٤٠هـ› [٣٤]، ويعتمد في أصول الفقه ‹مختصر ابن الحاجب ‹ت ٦٤٦هـ› إلى أن صنف كتاب الموافقات فأخذ يدرسه.[٣٥]

وأسندت إليه خطة الخطابة والإمامة ، فتولاها دون أن يوافق على ما ارتبط بها من عادات كان يراها من الشوائب الزائدة. قال الشاطبي : «دخلت في بعض خطط الجمهور من الخطابة والإمامة ونحوها، فلما أردت الاستقامة على الطريق وجدت نفسي غريبا في جمهور أهل الوقت، لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد، ودخلت في سننها الأصلية شوائب من المحدثات الزوائد، و لم يكن ذلك بدعا في الأزمنة المتقدمة فكيف في زماننا هذا».[٣٦]

واشتهر الشاطبي بالشدة في مقاومة ما يراه من البدع في عصره. وكان يدعو إلى إحياء السنة، وإماتة البدعة، والعمل بأصول الإسلام وشريعته على النحو الذي كان عليه المسلمون الأولون. وكانت مصادر فكره الإصلاحي هي القرآن والسنة وما عليه سلف الأمة، ولا يكون ذلك بمعزل عن أغراض الشريعة ومقاصدها.

وهذه الجهود الإصلاحية أدت به إلى التهمة وأصابته المحنة، وصورها الشاطبي بقوله : «فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة، وأن الناس لن يغنوا عني من الله شيئا، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور، فقامت علي القيامة، وتواترت علي الملامة، وفوّق إلي العتاب سهامه، ونسبت إلى البدعة والضلالة، وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة».[٣٧]

---

٣٤ – هو عبد السلام بن سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، يكنى أبا سعد اسمه عبد السلام وسحنون لقب غلب عليه، صليبة من العرب أصله شامي من حمص، ولد في رمضان سنة ١٦٠ أو ١٦١ وتوفي يوم الثلاثاء لسبع ليال خلون من رجب سنة ٢٤٠ وهو ابن ٨٠ سنة (الديباج المذهب لليعمري : ١٦٠/١، وميزان الاعتدال للذهبي : ١١٣/٨).

٣٥ – نيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي : ٧٦.

٣٦ – الاعتصام للشاطبي : ١٥/١.

٣٧ – المصدر نفسه والجزء، ص ١٨.

وكانت للشاطبي أيضا أبحاث ومراجعات في مشكلات علمية مع بعض أعلام عصره من أهمها مسألة أصولية وهي مراعاة الخلاف، ومسألة عقدية تتعلق بعصمة موسى عليه السلام، ومسألة فقـــهية، كما جادل أهل الكتاب من معاصريه بغرناطة في شؤون العقيدة بالتي هي أحســـن. فقد لاحظ أحمد بابا التنبكتي ‹ت ١٠٣٦هـــ› أنها ‹أجلت عن ظهوره فيها وقوة عارضته وإمامته›.[٣٨]

مؤلفاته :

استطاع الشاطبي الذي عشق المعرفة ونهل من مواردها أن يترك لنا نتاج فكره وثمرة قراءاته وجهاده وفيض عبقريته، وذلك في مؤلفاته القيمة مطبوعة وغير مطبوعة. وأما المطبوعة فهي :

١ – الموافقات في أصول الشريعة

٢ – الاعتصام

٣ – الإفادات والإنشادات

٤ – فتاوى الإمام الشاطبي

وأما مؤلفات الشاطبي غير المطبوعة فهي :

١ – كتاب المجالس :

٢ – شرح رجز ابن مالك [٣٩] في النحو ‹الألفية› وهو موسوم بـــ ‹المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الوافية :

٣ – عنوان الاتفاق في علم الاشتقاق :

---

٣٨ – نيل الابتهاج : ٤٨ وانظر مقدمة الدكتور أبي الأجفان لكتاب فتاوى الإمام الشاطبي : ٨٠.

٣٩ – هو جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الإمام العلامة الأوحد الطائي الجياني المالكي، ولد سنة ستمائة أو في التي بعدها، ولد بجيان سنة ٦٠٠هـــ، توفي بدمشق ليلة الأربعاء ١٢ من رمضان (البداية والنهاية لابن كثير : ٢٦٧/١٣، ونفح الطيب للمقري : ٢٢٢/٢).

٤ - أصول النحو :

هذه هي حياة الشاطبي وثقافتـــه الواسعة. ولقد قام بما قام به من نشاط وجهود طوال حياته، دون توان ولا يأس، حتى آخر أنفاسه، وإلى أن فارق هذه الحياة..

وفاته :

اختلف المؤرخون والباحثون في وفاته ، فالحجوي ‹ت ١٣٧٦هـ› يؤرخها سنة ٧٩٠هـ،[٤٠] ويذهب علي حسب الله إلى أنها كانت سنة ٧٨٠هـ [٤١]، ولكن أكثرهم يجعلها سنة ٧٩٠هـ، وهو التاريخ الصحيح الذي لا يتطرق إليه الشك، ذلك أن أحد تلاميذه عمد إلى نظم كتاب الموافقات، فنظم تاريخ وفاته فقال :

وقد ســـمعت بعضه لديه ومنه في ترددي عليه
لكن لم يكن له اختلافـــي إلا يسير القدر، غير كافي
لأن ثنى التقصير من عناني وصـــدني عن قربه زماني
حتى غدت حياته منقضية في عـــام تسعين وسبعماية

فكانت وفاته إذن، وعلى وجه الدقة، يوم الثلاثاء من شعبان، سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م.[٤٢]

وبعد الحديث عن حياة الشاطبي وثقافته، يجدر بنا أن نتكلم عن آرائه في التفسير الإشـــاري فنقول :

المبحث الثاني : آراء الشاطبي في التفسير الإشاري

التمهيد :

---

٤٠ - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي للحجوي : ٢٤٨/٢.
٤١ - أصول التشريع الإسلامي لعلي حسب الله : ٧.
٤٢ - نيل الابتهاج للتنبكتي : ٤٩، والشاطبي ومقاصد الشريعة للدكتور العبيدي، ص : ١٣.

قبل عرض آراء الشاطبي في هذه القضية، يجدر بي أن أشير أولا إلى الدلالة اللغوية لمصطلح التفسير.

التفسير في اللغة هو مصدر فَسَّره بتشديد السين، مأخوذ من الفسر بمعنى البيان. وقيل هو مقلوب من السفر –بتقديم الفاء على السين – مثل الجذب والجبذ، والمعنى واحد يقال أسفر الصبح إذا أضاء ففيه معنى الكشف والتوضيح. وقيل هو مأخوذ من التفسرة وهي اسم لما يعرف به الطبيب المرض.[٤٣]

وأما في الاصطلاح فيقول أبو حيان : «علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك».[٤٤]

وعرّفه الزركشي بأنه : «علم يفهم به كتاب الله المنزّل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه».[٤٥]

وعرّفه الزرقاني بأنه : «علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية».[٤٦]

ومن هنا يظهر أن علم التفسير هو علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد.[٤٧]

ومما تجدر الإشارة إليه أن المفسرين اختلفوا في العلاقة بين التفسير والتأويل[٤٨]. فبعضهم يرى أن التفسير مرادف للتأويل، وبعضهم يرى أن التفسير يخالف التأويل بالعموم

---

٤٣ – مختار الصحاح : ٢١١، ولسان العرب : ٥/٥٥، والقاموس المحيط : ١/٥٨٧.

٤٤ – تفسير البحر المحيط لأبي حيان : ١/١٢١.

٤٥ – اقتبسه السيوطي في كتابه الاتقان : ٢/٤٦٢.

٤٦ – مناهل العرفان للزرقاني : ٢/٣.

٤٧ – التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي : ١/١٧-١٨.

٤٨ – التأويل في اللغة أصله من الأول، وهو الرجوع، فكأن المؤول للآية رجع بها إلى ما تحتمله من المعاني. وقيل مأخوذ من الإيالة وهي السياسة، كأن المؤول للكلام ساسه، وتناوله بالمحاورة والمداورة حتى وصل إلى المراد منه. [انظر تاج العروس للزبيدي : ٢٨/ ٣١ ولسان العرب لابن منظور : ١١/٤٠ ومختارالصحاح : ١٣ والإتقان للسيوطي : ٢/٤٦٠.]

والخصوص فقط، ويجعل التفسير أعم مطلقا، وبعضهم يرى أن التفسير مباين للتأويل، فالتفسير هو القطع بأن مراد الله كذا، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع، أو التفسير بيان اللفظ عن طريق الرواية، والتأويل بيان اللفظ عن طريق الدراية، أو التفسير هو بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة، والتأويل هو بيان المعاني التي تستفاد بطريق الإشارة.[٤٩]

ويبدو مما سبق ذكره أن تعريف مصطلح التأويل عند المفسرين مختلف مع المتكلمين. ذلك لأن المتكلمين يرون أن التأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى يحتمله اللفظ، كما يتضح جليا من موقفهم من آيات الصفات. وقد نجد في كتب علم الكلام المتأخرة أن هذا المعنى مستعمل في معظمها إن لم يكن في جميعها، فهو عند الرازي في ‹تأسيس التقديس›، وبقية كتبه، وعند الغزالي ‹ت٥٠٥هـ› من قبل في ‹إلجام العوام›، و‹فيصل التفرقة›، ومن قبلهما عند إمام الحرمين في ‹الشامل› و‹الإرشاد›، و‹العقيدة النظامية›، وهو عند ابن رشد في ‹فصل المقال›.[٥٠]

ومما تجدر الإشارة إليه، أن الباطنية لهم رأي خاص حول مصطلح التأويل، وفي رأيهم أن التأويل هو باطن المعنى أو رمزه أو جوهره، وهو حقيقة مستترة وراء لفظة ولا تدل عليها،[٥١] أي أن القرآن الكريم أنزل على محمد ﷺ بلفظه ومعناه الظاهر للناس، وأما أسراره التأويلية الباطنية فقد خص بها عليا والأئمة من بعده.[٥٢] فجعل عز وجل ظاهره

---

٤٩ – الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٤٦٠/٢، ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني : ٥/٢ و الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور أبي شهبة : ٢٧-٢٨.

٥٠ – الإمام ابن تيمية وقضية التأويل عند الدكتور محمد السيد الجليند : ٤٨.

٥١ – أساس التأويل للنعمان : ٧، وانظر الباطنية وموقف الإسلام منهم للدكتور جميل محمد أبي العِلا : ٢٣٥.

٥٢ – أساس التأويل للنعمان : ٧، والباطنية وموقف الإسلام منهم للدكتور جميل محمد أبي العِلا : ٢٣٥-٢٣٦.

معجزة رسوله وباطنه معجزة الأئمة من أهل بيته وهو لا يوجد إلا عندهم، ولا يستطيع أحد أن يأتي بظاهر الكتاب غير محمد ﷺ ولا أن يأتي بباطنه غير الأئمة من ذريته.[٥٣]

وأما التفسير الإشاري أو الفيضي فهو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة.[٥٤]

ومن هنا يظهر أن هذا اللون من التفسير يعتمد على استبطان خفايا الألفاظ دون توقف عند حدود ظواهرها المألوفة ومعانيها القاموسية، وإنما يُنظر إلى اللفظة القرآنية على أنها ذات جوهر يدق على الفهم العادي، وأهل التجريد وحدهم هم الذين يتاح لهم -بفضل من الله- العلم الذي يكشفون به عن هذا الجوهر.[٥٥]

وهذا اللون من التفسير أيضا لا يعتمد اعتمادا كليا أو مسرفا على العقل، إنما هو يعنى بالأمور العقلية بالقَدْر الذي يُعنَى به الصوفية بالعقل. معنى هذا أن استنباط الإشارات اللطيفة من النص القرآني ليس عملية عقلية صرفة إلا في الحدود التي تضمن عدم افتيات الإشارة على العبارة، فلا تخرج بها عن مألوف ما ينسجم مع الأسلوب العربي سواء من حيث اللغة أو النحو أو الاشتقاق أو الفنون الأدبية، ولا تخرج بها عن الدلالات التي توافق أسباب النـــزول والأخبار الموثوقة وعلوم الحديث والأصول والفقه.[٥٦]

ويرى الصوفية أن التفسير الإشاري هو مظهر من مظاهر المعرفة وثمرات التصوف. وكان الصوفية يزعمون أنه هبة إلهية، بها يُتأول القرآن وتُدرك معانيه بنور رباني يتجلى على

---

٥٣ - أساس التأويل للنعمان : ٣١-٣٢، والباطنية وموقف الإسلام منهم للدكتور جميل محمد أبي العِلا : ٢٣٦.

٥٤ - مناهل العرفان للزرقاني : ٢/٧٨، والتفسير والمفسرون للدكتور محمد حسن الذهبي : ٣٥٢.

٥٥ - مقدمة الدكتور إبراهيم بسيوني لكتاب لطائف الإشارات للقشيري : ٢٢.

٥٦ - المرجع نفسه : ٢٢.

قلب العارف، فيرى به ما لا حصر له من المعاني الخفية على العوام. فهم يؤمنون بخاصية يمنحها الله لهم هي معرفة التأويل الباطن.[٥٧]

يقول التستري ‹ت ٢٨٣هـ› في اختصاص الصوفية أو الأولياء في معرفة باطن القرآن وهو فهم مراده : «إن الله تعالى ما تولى وليا من أمة محمد ﷺ إلا علمه القرآن إما ظاهرا وإما باطنا. قيل له : إن الظاهر نعرفه، فالباطن ما هو؟ قال : فهمه ، وإن فهمه هو المراد».[٥٨]

ومن ذلك أيضا ما رواه الجنيد ‹ت ٢٩٧هـ› مصداقا لرأي التستري بقوله : «كان عندنا ببغداد عبد أسود أعجمي اللسان، نسأله عن القرآن آية آية، فيجيبنا عن ذلك بأحسن جواب وهو لا يحفظ القرآن، وتلك دلالة ولايته».[٥٩]

ويقول القشيري ‹ت٤٦٥هـ› : «أكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفّي رموزه، بما لوّح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق -سبحانه وتعالى- يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون، وعنه يفصحون، والحكم إليه في جميع ما يأتون به ويذرون».[٦٠]

ويبدو مما سبق ذكره أن التفسير الإشاري أو التأويل الباطني عند الصوفية يختلف فيما يراه الباطنية على أن للقرآن ظاهرا وباطنا، ذلك لأن الباطنية لم يعترفوا بظاهر القرآن واعترفوا بالباطن فقط، وتعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق ونواياهم السيئة. وأما

---

٥٧ - الفتوحات المكية لابن عربي : ٨/٧٣-٧٤، وانظر أيضا الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر ليوسف زيدان : ١٤٨.

٥٨ - تفسير التستري : ٨٢، وانظر الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل الشيبي : ٢٨٠.

٥٩ - تفسير التستري : ٧، والصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل الشيبي : ٢٨٠.

٦٠ - لطائف الإشارات للقشيري : ٢٣.

الصوفية فقد اعترفوا بظاهر القرآن و لم يجحدوه، كما اعترفوا بباطنه، ولكنهم حين فسروا المعاني الباطنة خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا.

وفي ذلك يقول التفتازاني ‹ت ٧٩٣هـ› في شرح العقائد النسفية : «وسموا الباطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية».[٦١] ويستدرك التفتازاني قائلا : «وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال العرفان ومحض الإيمان».[٦٢]

يقول ابن عطاء الله السكندري ‹ت ٧٠٩هـ› : «اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله ولكلام رسوله بالمعاني الغريبة ... ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت له الآية ودلت عليه في عرف اللسان. وثم أفهام الباطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه ... فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مرادا بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما أفهمهم».[٦٣]

آراء الشاطبي في التفسير الإشاري :

يذكر الشاطبي أن للقرآن ظاهرا وباطنا أصل شرعي يقوم عليه. وقد فسر بأن الظهر والظاهر هو ظاهر التلاوة، والباطن هو الفهم عن الله لمراده وسره. وقد أشار القرآن إليه في قوله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[٦٤]،

---

٦١ – العقائد النسفية وشرحها للتفتازاني : ١٤٢.

٦٢ – المرجع نفسه : ١٤٢.

٦٣ – لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري : ١٣٦-١٣٧.

٦٤ – النساء : ٨٢.

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[٦٥]، هذه الآيات تشير إلى أن القرآن له ظاهر وباطن. وذلك لأن الله سبحانه وتعالى حيث ينعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثا، ويحضهم على تدبر في آيات القرآن الكريم لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام، أو حضهم على فهم ظاهره؛ لأن القوم عرب، والقرآن لا يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شك، وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، وحضهم على أن يتدبروا في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه و لم يصلوا إليه بعقولهم.[٦٦]

ويضرب الشاطبي المثال في ذلك؛ بما قالوا في الحسنة : ﴿ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[٦٧] وفي السيئة: هذه من عند رسول الله، بين لهم أن كلا من عند الهك، وأنهم لا يفقهون حديثا، لكن بَيَّنَ الوجه الذي يتنزل عليه أن كلا من عند الها بقوله : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[٦٨] الآية. [٦٩]

ونبه الرسول ﷺ إلى ذلك في الحديث من رواية الحسن مرسلا عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ما أنزل الله آية إلا ولها ظهر وبطن»- بمعنى ظاهر وباطن- «وكل حرف حد وكل حد مطلع».[٧٠]

---

٦٥ - محمد : ٢٤.

٦٦ - الموافقات للشاطبي : ٣/٣٢٥.

٦٧ - النساء : ٧٨.

٦٨ - النساء : ٧٩.

٦٩ - الموافقات للشاطبي : ٣/٣٢٥

٧٠ - أخرج ابن حبان في صحيحه (كتاب العلم، باب ذكر العلة التي من أجلها قال النبي، ١/٢٧٦/رقم ٧٥) بلفظ : ((أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن)). والهيثمي في موارد الظمآن : (كتاب المغازي والسير، باب في أحرف القرآن، ١/٤٤٠/رقم ١٧٨١) ومجمع الزوائد (٧/١٥٢)، والتبريزي في مشكاة المصابيح : (١/٨٠/رقم ٣٣٨).

وكأن هذا هو معنى ما روي عن علي أنه سئل: «هل عندكم كتاب؟ فقال: لا، إلا كتابُ الله، أو فهمٌ أُعْطِيَهُ رجلٌ مسلمٌ، أو ما في هذه الصحيفة» [٧١]. [٧٢] ويذكر الشاطبي أن بعض المفسرين يقول : الكلام في القرآن على ضربين :

أحدهما : يكون برواية فليس يعتبر فيها إلا النقل.

والآخر : يقع بفهم فليس يكون إلا بلسان من الحق إظهار حكمة -أي إظهار سر ومعنى من المعاني الخفية- على لسان العبد -من أصفيائه-، وهذا الكلام يشير إلى معنى كلام عليّ.[٧٣]

ويظهر مما سبق ذكره أن الشاطبي لا يرفض انقسام القرآن إلى ظاهر وباطن، ولكنه يقرر أن المراد بالظاهر هنا هو المفهوم العربي،[٧٤] فكل ما كان من المعاني العربية التي لا ينبني فهم القرآن إلا عليها فهو داخل تحت الظاهر،[٧٥] والباطن هو مراد الله تعالى من كلامه وخطابه، فإن كان مراد من أطلق هذه العبارة ما فسر فصحيح ولا نزاع فيه، وإن أرادوا غير ذلك فهو إثبات أمر زائد على ما كان معلوما عند الصحابة ومن بعدهم، فلا بد من دليل قطعي يثبت هذه الدعوى؛ لأنها أصل يحكم به على تفسير الكتاب، فلا يكون ظنيا، وما استدل به إنما غايته إذا صح سنده أن ينتظم في سلك المراسيل.[٧٦]

فكون الظاهر هو المفهوم العربي مجردا لا إشكال فيه عند الشاطبي؛ لأن المُوالف والمخالف اتفقوا على أنه منزل بلسان عربي مبين، ويستشهد على ذلك بقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾[٧٧] ثم رد الحكاية عليهم بقوله :

---

٧١ - صحيح : أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب العلم، باب كتابة العلم، ١/٥٣/رقم ١١١).
٧٢ - الموافقات للشاطبي : ٣/٣٢٥.
٧٣ - المرجع نفسه : ٣/٣٢٥-٣٢٦.
٧٤ - المرجع نفسه : ٣/٣٢٦.
٧٥ - المرجع نفسه : ٣/٣٢٨.
٧٦ - المرجع نفسه : ٣/٣٢٦.
٧٧ - النحل : ١٠٣.

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[٧٨] وهذا الرد على شرط الجواب في الجدل؛ لأنه أجابهم بما يعرفون من القرآن الذي هو بلسانهم، والبشر هنا حَبْر، وكان نصرانيا فأسلم، أو سلمان، وقد كان فارسيا فأسلم، أو غيرهما ممن كان لسانه غير عربي باتفاق منهم، وقال تعالى : ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَأَعۡجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾[٧٩] وقد علم أنهم لم يقولوا شيئا من ذلك، فدل على أنه عندهم عربي، وإذا ثبت هذا فقد كانوا فهموا معنى ألفاظه من حيث هو عربي فقط، وإن لم يتفقوا على فهم المراد منه فلا يشترط في ظاهره زيادة على الجريان على اللسان العربي.[٨٠]

ومن هنا يقرر الشاطبي أن كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء، لا مما يستفاد منه، ولا مما يستفاد به، ومن ادعى فيه ذلك فهو في دعواه مبطل.[٨١]

هذه هي الشروط التي وضعها الشاطبي للظاهر. وأما الشروط للباطن فيشترط فيه شرطان :

أحدهما : أن يصح على مقتضى الظاهر والمقرر في لسان العرب، ويجري على المقاصد العربية.[٨٢]

ويبين الشاطبي هذا الشرط بأنه ظاهر من قاعدة كون القرآن عربيا، فإنه لو كان فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن ليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدل عليه، وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلا، إذ ليست نسبته إليه على مدلوله أولى من نسبة ضده إليه، ولا مرجح يدل على أحدهما،

٧٨- النحل : ١٠٣.

٧٩ - فصلت : ٤٤.

٨٠ - الموافقات للشاطبي : ٣٣٢/٣.

٨١ - الموافقات للشاطبي : ٣٣٢/٣.

٨٢ - المرجع نفسه : ٣٢٤/٣.

فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم، والأدلة المذكورة في أن القرآن عربي جارية هنا.[٨٣]

والثاني : أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض؛ لأنه إن لم يكن له ذلك، صار من جملة الدعاوى التي تدعى على القرآن، والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء.[٨٤]

ويتضح من هذه الشروط التي وضعها الشاطبي لفهم ظاهر القرآن وباطنه أنه يخالف ما فهمه بعض المتصوفة المتأخرين في تفرقتهم بين الظاهر والباطن؛ ذلك لأنهم يجعلون هذا الانقسام منطلقا من تفرقتهم بين الشريعة والحقيقة، ويؤولون القرآن على هواهم، لا على الشرطين المذكورين.

مناقشة الشاطبي بعض التفسير الإشاري عند الصوفية :

وتحقيقا لهذين الشرطين، ناقش الشاطبي بعض تأويلات صوفية للقرءان، وقد رأى أن منها ما يتوفر فيه الشرطان السابقان، ومنها ما هو على خلاف ذلك.

فأما الذي يتوفر فيه الشرطان فمن ذلك أنه نقل عن سهل بن عبد الله التستري ‹ت ٢٨٣هـ› قال في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٨٥] أي أضدادا. قال فيه : وأكبر الأنداد النفس الأمارة بالسوء، الطواعة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله، وهذا يشير إلى أن النفس الأمارة داخلة تحت عموم الأنداد، حتى لو فصل لكان المعنى : فلا تجعلوا لله أندادا لا صنما ولا شيطانا ولا النفس ولا كذا.[٨٦]

ويقول الشاطبي إن هذا التأويل مشكل من حيث الظاهر، لأن سياق الآية وما يحف بها من قرائن يدل على أن الأنداد مراد بها كل ما يعبد من دون الله، سواء أكان صنما

---

٨٣ – المرجع نفسه: ٣/٣٣٤.

٨٤ – المرجع نفسه : ٣/٣٣٥.

٨٥ – البقرة : ٢٢.

٨٦ – تفسير التستري : ٩٠، وذكره الشاطبي في الموافقات : ٣/٣٣٨-٣٣٩.

أم غير صنم، أما الأنفس فلم تكن معبودة لهم، و لم يعرف أنهم اتخذوها أربابا من دون الله.[٨٧]

ثم يقول إنه يمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح، وذلك لأن التستري لم يقل إن هذا هو تفسير الآية، ولكن جاء بالمعنى في الند، وأجراه في الآية وإن لم تُنَـــزَّل فيه، لكونه يعتبر شرعا كالند الذي نزلت فيه، ويشهد لاعتبار هذا الإجراء وجهان :

أحدهما : أنه في نفس موضوع اتخاذ الأنداد والأرباب.

والثاني : أعم من ذلك، وهو حذر الصحابة وخوفهم من تطبيق الآيات التي أنزلت في الكفار عليهم، فاجتنبوا لذلك ما ورد خاصا بالكفار مما اقتضى اتصاف هؤلاء بالحرمان، ولو كان من أصل المباحات، كالتوسع في أخذ الحظوظ الدنيوية.[٨٨]

ومن المنقول عن التستري ‹ت ٢٨٣هـــ› أيضا في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾[٨٩] قال فيه : «لم يرد الله معنى الأكل في الحقيقة، وإنما أراد معنى مساكنة الهمة لشيء هو غيره، أي لا تهتم بشيء هو غيري، قال: فآدم لم يعصم من الهمة والتدبير، فلحقه ما لحقه، قال : وكذلك كل من ادعى ما ليس له وساكن قلبه ناظرا إلى هوى نفسه، لحقه الترك من الله مع ما جبلت نفسه عليه، إلا أن يرحمه الله فيعصمه من تدبيره، وينصره على عدوه وعليها، قال : وآدم لم يعصم من مساكنة قلبه إلى تدبير نفسه للخلود لما أدخل الجنة؛ لأن البلاء في الفرع دخل عليه من أجل سكون القلب إلى ما وسوست به نفسه، فغلب الهوى والشهوة والعلم والعقل لسابق القدر، إلى آخر ما تكلم به».[٩٠]

ويرى الشاطبي أن هذا الذي ادعاه في الآية خلاف ما ذكره المفسرون من أن المراد النهي عن نفس الأكل، لا عن سكون الهمة لغير الله، وإن كان هذا منهيا عنه أيضا،

---

٨٧ – الموافقات للشاطبي : ٣/٣٣٨-٣٣٩.

٨٨ – المرجع نفسه : ٣/٣٣٨-٣٣٩.

٨٩ – البقرة : ٣٥.

٩٠ – تفسير التستري : ٩٣، وذكره الشاطبي في الموافقات : ٣/٣٣٩-٣٤٠.

غير أن الشاطبي يرى أن هذا الكلام له وجه يجري عليه لمن تأول، وذلك أن النهي في الآية لا يصح حمله على نفس القرب مجردا، إذ لا مناسبة فيه ظاهرة، ولأنه لم يقل به أحد، وإنما النهي عن معنى في القرب، وهو إما التناول والأكل، وإما غيره وهو شيء ينشأ الأكل عنه، وذلك مساكنة الهمة، فإنه الأصل في تحصيل الأكل، ولا شك في أن السكون لغير الله لجلب المنفعة أو دفع مفسدة منهي عنه.[٩١]

فهذا التفسير له وجه ظاهر، فكأنه يقول : لم يقع النهي عن مجرد الأكل من حيث هو أكل، بل عما ينشأ عنه الأكل من السكون لغير الله، إذ لو انتهى عما نهى الله لكان ساكنا لله وحده، فلما لم يفعل وسكن إلى أمر في الشجرة غره به الشيطان، وهو الخلود في الجنة، أضاف الله إليه لفظ العصيان، ثم تاب عليه، إنه هو التواب الرحيم.[٩٢]

ويبدو أن الشاطبي جعل كلامه في الآية تفسيرا ومرادا من كلام الله تعالى لاستيفاء الشرطين السابقين، فإنه جعله معنى إشاريا.

ومنه قوله في تفسير قول الله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾[٩٣] قال : رأس الطواغيت كلها النفس الأمارة بالسوء إذا خلى العبد معها للمعصية، وهو أيضا عند الشاطبي من قبيل ما قبله، وإن فرض أنه تفسير فعلى ما مر في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾[٩٤]. [٩٥]

وأما الذي لا يتوفر فيه الشرطان، فمن ذلك في تفسير فواتح السور، فيروون عن ابن عباس أنه فسر ﴿ الم ﴾[٩٦]، فقال : «الألف : الله، واللام : جبريل، وميم : محمد ﷺ ... وأن الله أقسم بنفسه وجبريل ومحمد عليهما السلام»[٩٧]، وهذا إن صح نقله فهو

---

٩١ – الموافقات للشاطبي : ٣/٣٤٠.

٩٢ – المرجع نفسه : ٣/٣٤٠.

٩٣ – النساء : ٥١.

٩٤ – البقرة : ٢٢.

٩٥ – تفسير التستري : ١٣٢، وذكره الشاطبي في الموافقات : ٣/٣٤١.

٩٦ – البقرة : ١.

٩٧ – تفسير التستري : ١٢، وذكره الشاطبي في الموافقات : ٣/٣٣٦.

مشكل إلى حد بعيد عند الشاطبي ؛ ذلك لأن الإشارة إلى الكلمة بحرف ليس معهودا في كلام العرب. اللهم إلا إن دل عليه الدليل اللفظي أو الحالي كقول الشاعر :

فقلت لها قفى فقالت قاف

أراد : قالت وقفت. وقول زهير :

بالخير خيرات وإن شرا فا # ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد : وإن شرا فشر، وأراد : إلا أن تشاء.

على أنه لم يقم دليل من الخارج يدل على هذا التفسير، إذ لو كان له دليل لاقتضت العادة نقله؛ لأنه من المسائل التي تتوفر الدواعى على نقلها، لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه. ولما لم يثبت شيء من ذلك دل على أنه من قبيل المتشابهات، فإن ثبت له دليل يدل عليه صير إليه.[٩٨]

ويقول الشاطبي إن مثل هذا التفسير مشكل بل وأعظم منه إشكالا حيث ادعوا أن هذه الحروف ترمز إلى أسرار غيبية ومعان مكنية، وإذا جمعت هذه الحروف على طريقة مخصوصة كان كذا وكذا، بل ويدعون أحيانا أن هذه الحروف هي أصل العلوم ومنبع المكاشفات على أحوال الدنيا والآخرة، وينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى في خطابه العرب الأمية التي لا تعرف شيئا من ذلك.[٩٩]

ومن المواضع المشكلة أيضا، ولكنها أخف إشكالا مما مر ما جاء عن التستري ‹ت ٢٨٣هـ› لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[١٠٠] الآية، بقوله «أول بيت وضع للناس بيت الله عز وجل بمكة، هذا هو الظاهر، وباطنها الرسول يؤمن به من أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس».[١٠١]

---

٩٨ – الموافقات للشاطبي : ٣/٣٣٦.

٩٩ – الموافقات للشاطبي : ٣/٣٣٧.

١٠٠ – آل عمران : ٩٦.

١٠١ – تفسير التستري : ١٢٥، وذكره الشاطبي في الموافقات : ٣/٣٤٠.

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[١٠٢] حيث يقول - بعد ذكره للتفسير الظاهر- «أما باطنها، فالجار ذي القربى : هو القلب، والجار الجنب : هو الطبيعة، والصاحب بالجنب : هو العقل المقتدى بالشريعة ، وابن السبيل : هو الجوارح المطيعة لله».[١٠٣]

وقال في قوله : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾[١٠٤] أي قلوبهم عند إقامتهم على ما نهوا عنه؟ وقد علموا أنهم مأمورون منهيون، والبيوت القلوب، فمنها عامرة بالذكر، ومنها خراب بالغفلة عن الذكر.[١٠٥] وفي قوله : ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾[١٠٦] قال : حياة القلوب بالذكر،[١٠٧] وقال في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[١٠٨] الآية، مثل الله القلب بالبحر، والجوارح بالبر،[١٠٩] ومثله أيضا بالأرض التي تزهو بالنبات، هذا باطنه.[١١٠]

وقد حمل بعضهم قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[١١١] على أن المساجد القلوب تمنع بالمعاصي من ذكر الله،[١١٢] ونُقل في قوله تعالى : ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[١١٣] أن باطن النعلين هو الكونان:

---

١٠٢ - النساء : ٣٦.

١٠٣ - المرجع نفسه : ٢٣١، وذكره الشاطبي في الموافقات : ٣٤١/٣.

١٠٤ - النمل : ٥٢.

١٠٥ - المرجع نفسه : ٢١٢، وذكره الشاطبي في الموافقات : ٣٤١/٣.

١٠٦ - الروم : ٥٠.

١٠٧ - المرجع نفسه : ٢١٩، وذكره الشاطبي في الموافقات : ٣٤١/٣.

١٠٨ - الروم : ٤١.

١٠٩ - المرجع نفسه : ٢١٨، وذكره الشاطبي في الموافقات : ٣٤١/٣-٣٤٢.

١١٠ - الموافقات للشاطبي : ٣٤٢/٣

١١١ - البقرة : ١١٤.

١١٢ - لطائف الإشارات للقشيري : ١١٥/١، وذكره الشاطبي في الموافقات : ٣٤٢/٣/٣.

١١٣ - طه : ١٢.

الدنيا، والآخرة،[١١٤] فذكر عن الشبلي ‹ت٣٣٤هـ› أن معنى : ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾[١١٥] عن الكون فلا تنظر إليه بعد هذا الخطاب. وقال: النعل: النفس، والوادي المقدس دين المرء، أي حان وقت خلوك من نفسك، والقيام معنا بدينك، وقيل غير ذلك مما يرجع إلى معنى لا يوجد في النقل عن السلف.[١١٦]

هذا وأمثاله من كلام الصوفية في هذا المعنى -عند الشاطبي- لا تعرفه العرب، ولا فيه من جهتها وضع مجازي مناسب، ولا يلائمه مساق بحال، فهو فاقد للشرطين المتقدمين في التفسير، والعذر عنه أنه لم يقع فيه ما يدل على أنه تفسير بل معنى إشاري للقرآن فزال الإشكال إذًا. [١١٧]

ويستدل الشاطبي على ذلك بأنه لم ينقل عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن يماثله هذا التفسير أو يقاربه، ولو كان عندهم معروفا لنقل؛ لأنهم كانوا أحرى بفهم ظاهر القرآن وباطنه باتفاق الأئمة، ولا يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها، ولا هم أعرف بالشريعة منهم، ولا أدرى بلغة القرآن من قومه الذي نزل بلسانهم وعلى لغتهم.[١١٨]

ولقد قال أبو بكر الصديق: رضي الله عنه: «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم؟»[١١٩] وفي الخبر: «من قال

---

١١٤ - المرجع نفسه : ٤٤٨/٢، وذكره الشاطبي في الموافقات : ٣٤٢/٣/٣.

١١٥ - طه : ١٢.

١١٦ - الموافقات للشاطبي : ٣٤٢/٣.

١١٧ - المرجع نفسه : ٣٤٠/٣.

١١٨ - المرجع نفسه : ٣٤١/٣.

١١٩ - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (كتاب فضائل القرآن، باب من كره أن يقول إذا قرأ القرآن ليس كذا، ١٣٦/٦/رقم ٣٠١٠٧)، وابن حجر في المطالب العالية (٤٢٥/١٤/رقم ٣٥١٢)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٠/٩).

في القـــرآن بـــرأيه فأصاب فقد أخطأ»[١٢٠] وما أشبه ذلك من التحـــذيرات، وإنـــما احتـــيج إلى هـــذا كلـــه لجـــلالة مـــن نقل عنهم ذلك من الفضلاء.[١٢١]

ويشير الشاطبي إلى أن الناس في أمثال هذه الأشياء بين قولين: منهم من يصدق به ويأخذه على ظاهره، ويعتقد أن ذلك هو مراد الله تعالى من كتابه، وإذا عارضه ما ينقل في كتب التفسير على خلافه فربما كذب به أو أشكل عليه، ومنهم من يكذب به على الإطلاق، ويرى أنه تقول وبهتان. ويرى الشاطبي أن كلا الطرفين فيه ميل عن الإنصاف[١٢٢].

ولذلك فقد بيّن الشاطبي أن الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب، الظاهرة للبصائر، إذا صحت على كمال شروطها فهي على ضربين :

أحدهما : ما يكون أصل انفجاره من القرآن، ويتبعه سائر الموجودات، فإن الاعتبار الصحيح في الجملة هو الذي يخرق نورُ البصيرة فيه حجب الأكوان من غير توقف، فإن توقف فهو غير صحيح أو غير كامل.[١٢٣]

ويرى الشاطبي أن ذلك الاعتبار صحيح، وهو معتبر في فهم باطن القرآن من غير إشكال؛ لأن فهم القرآن إنما يرد على القلوب على وفق ما نزل له القرآن، وهو الهداية التامة على ما يليق بكل واحد من المكلفين، وبحسب التكاليف وأحوالها، لا بإطلاق. وإذا كان الأمر كذلك فالمشي على طريقها مشي على الصراط المستقيم، ولأن الاعتبار القرآني قلما يجده إلا من كان من أهله عملا به على تقليد أو اجتهاد، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده، كما لا يخرجون في العمل به والتخلق بأخلاقه عن حدوده، بل تنفتح

---

١٢٠ – أخرجه الترمذي في سننه (كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عن رسول اللَّهِ، بَاب ما جاء في الذي يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ، ٥/٢٠٠/رقم ٢٩٥٢) وسكت عنه، والطبراني في المعجم الأوسط (٥/٢٠٨/رقم ٥١٠١).

١٢١ – الموافقات للشاطبي : ٣/٣٤٢.

١٢٢ – المرجع نفسه : ٣/٣٤١-٣٤٢.

١٢٣ – الموافقات للشاطبي : ٣/٣٤٣.

لهم أبواب الفهم فيه على توازي أحكامه، ويلزم من ذلك أن يكون معتدا به لجريانه على مجاريه، والشاهد على ذلك ما نقل من فهـــم السلف الصالح فيه، فإنه كله جار على ما تقضي به العربية، وما تدل عليه الأدلة الشرعية.[١٢٤]

والثاني : ما يكون أصل انفجاره من الموجودات جزئيها أو كليها، ويتبعه الاعتبار في القرآن.[١٢٥]

ويرى الشاطبي أن هذا الاعتبار يلزم التوقف في فهم باطن القرآن، وأخذه على إطلاق فيه ممتنع؛ لأنه بخلاف الأول، فلا يصح إطلاق القول باعتباره في فهم القرآن.[١٢٦]

ومن هنا، يقرر الشاطبي أن تلك الأنظار الباطنة في الآيات المذكورة إذا لم يظهر جريانها على مقتضى الشروط المتقدمة فهي راجعة إلى الاعتبار غير القرآني، وهو الوجودي[١٢٧]، ويصح تنـــزيله على معاني القرآن.[١٢٨]

وعلى ذلك يرى الشاطبي أن كون القلب جارا ذا قربى، وكون الجار الجنب هو النفس الطبيعي، إلى سائر ما ذكر يصح تنـــزيله اعتباريا مطلقا، فإن مقابلة الوجود بعضه ببعض في هذا النمط صـــحيح وسهل جدا عند أربابه، غير أنه مغرر بمن ليس براسخ أو داخل تحت إيالة راسخ.[١٢٩]

---

١٢٤ - المرجع نفسه : ٣٤٣/٣.

١٢٥ - المرجع نفسه : ٣٤٣/٣.

١٢٦ - المرجع نفسه : ٣٤٣/٣.

١٢٧ - مثال الاعتبار الخارجي ما يروونه عن بعضهم في معنى قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : ٣] قال : ألف شهر هي مدة الدولة الأموية؛ لأنها مكثت ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر، وأن ذلك من الله تسلية لرسول الله ﷺ حيث أطلعه على ملوك بني أمية واحدا واحدا، فسرى عنه بهذه السورة هذا المعنى لم يؤخذ من القرآن، بل أخذ من الخارج والواقع في ذاته بمصادفة مطابقة العدد، واللفظ لا ينبو عنه، لكنه لا دليل من الشرع على كونه هو المعنى المقصود. (تعليق من الشيخ عبد الله دراز، انظر الموافقات للشاطبي : ٣٤٤/٣).

١٢٨ - الموافقات للشاطبي : ٣٤٤/٣.

١٢٩ - المرجع نفسه : ٣٤٤/٣.

ويضيف الشاطبي إلى ذلك أن من ذكر عنه مثل ذلك من المعتبرين لم يصرح بأنه المعنى المقصود المخاطب به الخلق، بل أجراه مجراه، وسكت عن كونه هو المراد، وإن جاء شيء من ذلك وصرح أنه هو المراد، فهو من أرباب الأحوال الذين لا يفرقون بين الاعتبار القرآني والوجودي، وأكثر ما يطرأ هذا لمن هو بَعدُ في السلوك، سائر على الطريق، لم يتحقق بمطلوبه. ويذكر الشاطبي أن للغزالي ‹ت٥٠٥هـ› في ‹مشكاة الأنوار› وفي كتاب الشكر من ‹الإحياء›[١٣٠] وفي كتاب ‹جواهر القرآن›[١٣١] في الاعتبار القرآني وغيره ما تبين به لهذا الموضع أمثلة.[١٣٢]

المقارنة بتفسير الباطنية للقرآن :

وجدير بالذكر أن الشاطبي وإن كان يقول بالتوقف عن التأويل الباطني الذي لم تتحقق فيه الشروط المتقدمة، فإن هذا لا يمنعه أن يشبّهه بالتأويل عند الباطنية، كمثل تأويل التستري ‹ت ٢٨٣هـ› لقوله تعالى ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[١٣٣] كما سبقت الإشارة إلى ذلك. يقول الشاطبي عن هذا التأويل : «بل

---

١٣٠ – مما جاء فيه أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴾ [المطففين : ٢٩-٣٣] إشارة إلى ضحك الجاهلين وتغامزهم على أهل السلوك، وقولهم : كيف يقولون في الشخص عن نفسه وإنه ليأكل أرطالا من الخبز في اليوم وطوله كذا وعرضه كذا؟ قال: وكذلك أمة نوح، كانوا يضحكون عليه عند صنعه للسفينة، فقال : ﴿ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ هود : ٣٨. [انظر إحياء علوم الدين للغزالي : ٨٦/٤].

١٣١ – منه أن الفاتحة اشتملت من الأقسام العشرة التي هي علوم القرآن على ثمانية منها، وهي ما عدا محاجة الكفار وأحكام الفقهاء، ويتبين بهذا أنهما واقعان في الصنف الأخير من مراتب العلوم، وما قدمهما إلا حب المال والجاه فقط، ثم قال : إن الفاتحة مفتاح الكتاب، ومفتاح الجنة، فأبواب الجنة ثمانية؛ ومعاني الفاتحة ترجع إلى ثمانية، فهذا من نوع الاعتبارات القرآنية، وقد أوضحه هناك بأن كل قسم يفتح باب بستان من بساتين المعرفة، وأن روح العارف لتفرج وتنشرح في رياض المعرفة بما لا يقل عن انشراح من يدخل الجنة التي يعرفها [تعليق من الشيخ عبد الله دراز، انظر الموافقات للشاطبي : ٣٤٤/٣و انظر جواهر القرآن للغزالي : ٧١/١].

١٣٢ – الموافقات للشاطبي :٣٤٣/٣-٣٤٤.

١٣٣ – النساء : ٣٦.

مثل هذا أقرب إلى ما ثبت رده ونفيه عن القرآن من كلام الباطنية ومن أشبههم».[١٣٤]

ويبدو أن الشاطبي يرى أن الباطنية لها تأثير في تأويل القرآن لدى بعض الصوفية. ويبين الشاطبي أن هؤلاء القوم أرادوا إبطال الشريعة جملة وتفصيلا، وإلقاء ذلك فيما بين المسلمين، لينحل الدين في أيديهم، فلم يمكنهم إلقاء ذلك صراحا، فيرد ذلك في وجودهم وتمتد إليهم أيدي الحكام، فصرفوا عنايتهم إلى التحيل على ما قصدوا بأنواع من الحيل، من جملتها صرف الهمم عن الظواهر، إحالة على أن لها بواطن هي المقصودة، وأن الظواهر غير مرادة.[١٣٥]

فقال الباطنية : كل ما ورد في الشرع من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية، فهي أمثلة ورموز إلى بواطن.[١٣٦]

وقد تنبه ابن خلدون —أيضا- إلى تأثر بعض المتصوفة المتأخرين بمذهب الباطنية في تأويلهم حيث يقول : «ثم يفسرون —أي المتصوفة- المتشابه من الشريعة ... وربما يتضمن أفعالا منكرة ومذاهب مبتدعة ككلمة الباطنية في حمل كثير من آيات القرآن المعلومة الأسباب على معنى باطن، ويضربون بحجب التأويل على وجوهها السافرة وحقائقها الواضحة، كقولهم في آدم وحواء أنهما النفس والطبيعة، وقولهم في ذبح البقرة إنها النفس، وقولهم في أصحاب الكشف إنهم الخالدون إلى أرض الشهوات وأمثال ذلك. وهم عندما يُطلَب منهم تحقيق دعواهم يجأون إلى الوجدان الذي لا يتعدى دليله ولا يتضح على الغير برهانه».[١٣٧]

ومن هنا، أنكر ابن خلدون ما فعلوه ؛ لأن لهم سعة في تقليد السلف منهم في النهي عن الخوض في ذلك، كما ذكرت أسمائهم في الرسالة القشيرية. ولا فائدة في كلماتهم

---

١٣٤ - الموافقات للشاطبي : ٣/٣٤١.

١٣٥ - الاعتصام للشاطبي : ٢/٦٤-٦٥.

١٣٦ - المرجع نفسه : ٢/٦٤-٦٥.

١٣٧ - شفاء السائل لتهذيب المسائل لابن خلدون : ٢١١.

وتفاسيرهم لما فيها من الإبهام والاستغلاق. ونصح لهم ابن خلدون أن يرجعوا إلى تصفح كلمات الشرع، واقتباس معانيها من التفاسير المعتضدة بالأثر، ولو كانت لا تخلص من الإبهام، أولى من إبهامهم الذي لا يستند إلى برهان عقل، ولا قضية شرع.[١٣٨]

ويؤكد ما ذكره الشاطبي وابن خلدون ما ذهب إليه ابن تيمية ‹ت ٧٢٨هـ› من أن دعوى الظاهر والباطن أو أن لكل تنـــزيل تأويلا، هي القاسم المشترك بين الباطنية وبعض الصوفية، وإن كانت تعرف عند بعض الصوفية باسم الشريعة والحقيقة، إلا أن اختلاف الأسماء لا ينبغي أن يحجب عن الأعين أن حقيقة الموقف واحدة عند الجميع، وهي اتفاقهم على تأويل التنـــزيل.[١٣٩]

وأورد الشاطبي في حديثه عن الباطنية كلاما للغزالي ‹ت ٥٠٥هـ› قال فيه: «ينبغي أن يعرف الإنسان أن رتبة هذه الفرقة أخس من رتبة كل فرقة من فرق الضلال، إذ لا تجد فرقة مذهبها بنفس المذهب سوى هذه الفرقة التي هي الباطنية، إذ مذهبها إبطال النظر وتغيير الألفاظ عن موضوعاتها بدعوى الرمز، وكل ما يتصور أن تنطق به ألسنتهم، فإما نظر أو نقل. أما النظر فقد أبطلوه، وأما النقل فقد جوزوا أن يراد باللفظ غير موضوعه، فلا يبقى لهم معتصم، والتوفيق بيد الله».[١٤٠]

ويضـــرب الشاطبي بعض الأمثلة من تفاسير الباطنية للقرآن. فقد قالوا قوله تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾[١٤١]، إنه الإمام ورث النبي علمه. وقالوا في الجنابة : إن معناها مبادرة المستجيب بإفشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق، ومعنى الغسل : تجديد العهد على من فعل ذلك، ومعنى الطهور: هو التبري والتنظف من اعتقاد كل مذهب

---

١٣٨ – المرجع نفسه : ٢١١-٢١٢.

١٣٩ – رسالة العبودية : ٤٥-٤٧، وانظر أيضا الإمام ابن تيمية وقضية التأويل للدكتور محمد السيد الجليند : ٢٥٢.

١٤٠ – فضائح الباطنية للغزالي : ٥٢-٥٣.

١٤١ – النمل : ١٦.

سوى متابعة الإمام، والتيمم، الأخذ من المأذون إلى أن يشاهد الداعي أو الإمام، والصيام: الإمساك عن كشف السر، والكعبة : النبي، والباب : علي، والصفا: هو النبي، والمروة: علي، والتلبية: إجابة الداعي، والطواف سبعا، هو الطواف بمحمد عليه الصلاة والسلام إلى تمام الأئمة السبعة، والصلوات الخمس : أدلة على الأصول الأربعة وعلى الإمام، ونار إبراهيم : هو غضب نمروذ لا النار الحقيقية، وذبح إسحاق : هو أخذ العهد عليه، وعصا موسى : حجته التي تلقفت شبه السحرة، وانفلاق البحر : افتراق علم موسى عليه السلام فيهم، والبحر : هو العالم، وتظليل الغمام : نصب موسى الإمام لإرشادهم، والمن : علم نزل من السماء، والسلوى: داع من الدعاة، والجراد والقمل والضفادع : سؤالات موسى وإلزاماته التي تسلطت عليهم. وتسبيح الجبال : رجال شداد في الدين، والجن الذين ملكهم سليمان : باطنية ذلك الزمان. والشياطين : هم الظاهرية [١٤٢] الذين كلفوا الأعمال الشاقة، إلى سائر ما نقل من خباطهم الذي هو عين الخبال، وضحكة السامع، نعوذ بالله من الخذلان.[١٤٣]

وهذه التفاسير فاقدة الشروط للظاهر والباطن، كما سبقت الإشارة إليه. ويذكر الشاطبي أنها ليست من علم الباطن، كما أنها ليست من علم الظاهر، وليست من كلام الصوفية طبعا، ولكنها من كلام الباطنية.

---

١٤٢ – هم هنا أهل السنة والجماعة وليس الظاهرية في الفقه كابن حزم ومن هو على منهجه كما نبهني إلى ذلك الدكتور عبد الحميد مدكور، الأستاذ بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

١٤٣ – الموافقات للشاطبي : ٣٣٥/٣ والاعتصام للشاطبي : ٦٥/٢ وانظر أيضا فضائح الباطنية للغزالي : ٥٢.

الخاتمة

بعد أن حلقنا مع الشاطبي في سماء الفكر وإشعاعات الروح، نصل إلى الخاتمة التي أود أن أسجل فيها أهم النتائج التي هدتنا إليها الدراسة والتي تعتبر الحصاد الذي يمكن أن نجنيه من هذا البحث، وهذه النتائج نوجزها فيما يلي :

أولا : ألقت الدراسة ضوءا على ملامح شخصية الشاطبي، وكشفت عن سمات العبقرية التي تتسم بها هذه الشخصية ، والتي هيأته ليكون مفكرا قديرا استكمل العدة التي لا بد منها لمن يقدم على الفكر والنظر، فقد جمعها بين عمق الفكر وبعد النظر، ودقة الملاحظة، ورهافة الحس، وصدق الحدس، ونفاذ البصيرة وإضاءة الوجدان، وجمعها إلى هذا كله صدق اليقين وقوة العقيدة وصفاء الروح، ودفعها ذلك إلى أن يتزودوا بخير الزاد، فنهل من ثقافة عصره، وخاض في بحار المعرفة.

ثانيا : رأينا أن الشاطبي كان صدى عصره، فقد تجاوب مع الأحداث التي كان يعج بها هذا العصر، وتفاعل مع المشكلات التي كانت تصطرع فيه خصوصا في مجال التفسير، ولم يكن هذا التجاوب تجاوبا سلبيا، بل إنه وقف موقفا إيجابيا، فدرس هذه المشكلات، وغاص في أعماقها، ووقف على أسبابها، وحاول أن يشخص لها العلاج، فكان مثله في ذلك مثل الطبيب الماهر الذي يتعرف على الداء وأسبابه ثم يصف له الدواء، وبذلك اتسم فكره بالواقعية، وابتعد عن الفكر النظري الذي لا صلة له بالواقع.

ثالثا : كشفت الدراسة أن النظرة الثنائية بين الظاهر والباطن موجودة في الإسلام، غير أن هذه الثنائية لها شروط، وليست منطلقة من تفرقة بين الشريعة والحقيقة حتى يؤول القرآن على ما يرى هواه لا على الشروط المتقررة كما فعل بعض الصوفية والباطنية.

المصادر والمراجع

- ابن العربي. أبو بكر محمد بن علي الملقب بمحيي الدين بن عربي. الفتوحات المكية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. الطبعة الثانية. ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. تحقيق : الدكتور عثمان يحيى.
- باشا. إسماعيل. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. دار الفكر — بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- الأفريقي المصري. محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب. دار صادر – بيروت. الطبعة الأولى. بدون تاريخ الإصدار.
- الأندلسي. محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان. تفسير البحر المحيط. دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م. تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود. الشيخ علي محمد معوض. شارك في التحقيق الدكتور زكريا عبد المجيد النوقي والدكتور أحمد النجولي الجمل.
- البخاري الجعفي. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح المختصر. دار ابن كثير — اليمامة/بيروت. الطبعة الثالثة. ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.
- التبريزي. الخطيب محمد بن عبد الله. مشكاة المصابيح . المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة الثالثة. ١٩٨٥م. تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني.
- التستري. سهل بن عبد الله. تفسير القرآن العظيم. دار الحرم للتراث — القاهرة. الطبعة الأولى. ٢٠٠٤م. تحقيق : طه عبد الرءوف سعد وسعد حسن محمد علي.

- التلمساني. أحمد بن محمد المقري. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. دار صادر — بيروت. ١٣٨٨هـ. تحقيق : د. إحسان عباس. بدون رقم الطبعة.
- التميمي البستي. أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. مؤسسة الرسالة — بيروت. الطبعة الثانية. ١٤١٤هـ/١٩٩٣م. تحقيق: شعيب الأرنؤوط.
- التميمي المغربي. النعمان بن حيون. أساس التأويل. دار الثقافة — بيروت. تحقيق: عارف تامر. بدون رقم الطبعة وتاريخ الإصدار.
- التنبكتي. أحمد بابا. نيل الابتهاج بتطريز الديباج. طبع بهامش كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لليعميري. مطبعة المعاهد القاهرة. الطبعة الأولى. ١٣٥١هـ.
- أبو شهبة. محمد بن محمد. الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير. مكتبة السنة – القاهرة. الطبعة الرابعة. ١٤٠٨هـ.
- أبو العلا. جميل محمد . الباطنية وموقف الإسلام منهم. دار المعارف. الطبعة الأولى. ١٩٨٩م.
- الجليند. محمد السيد. الإمام ابن تيمية وقضية التأويل؛ دراسة لمنهج ابن تيمية في الآلهيات وموقفه من المتكلمين والفلاسفة والصوفية. دار قباء – القاهرة. الطبعة الخامسة. ٢٠٠٠م.
- الدمشقي. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. البداية والنهاية. مكتبة المعارف — بيروت. بدون رقم الطبعة وتاريخ الإصدار.
- الذهبي. محمد حسن. التفسير والمفسرون. دار الكتب الحديثة. الطبعة الثانية. ١٢٩٦هـ/١٩٧٦م.

- الذهبي. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. ميزان الاعتدال في نقد الرجال. دار الكتب العلمية — بيروت. الطبعة الأولى. ١٩٩٥م. تحقيق : الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود.
- الرازي. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. مختار الصحاح. مكتبة لبنان ناشرون — بيروت. الطبعة طبعة جديدة.
- الزبيدي. محمد مرتضى الحسيني. تاج العروس من جواهر القاموس. دار الهداية. تحقيق: مجموعة من المحققين. بدون رقم الطبعة وتاريخ الإصدار.
- الزرقاني. محمد عبد العظيم. مناهل العرفان في علوم القرءان. دار إحياء الكتب العربية. بدون رقم الطبعة وتاريخ الإصدار.
- الزركلي. خير الدين. الأعلام: قاموس تراجم للأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين والمستشرقين. دار العلم للملايين - بيروت. الطبعة السابعة. ١٩٨٦م.
- السكندري. أبو الفضل أحمد بن محمد ابن عطاء الله. لطائف المنن. دائرة المعارف. الطبعة الثانية. ١٩٩٩م.
- السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. المكتبة العصرية - لبنان / صيدا. تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم. بدون رقم الطبعة وتاريخ الإصدار.
- السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. الإتقان في علوم القرآن. دار الفكر — لبنان. الطبعة الأولى. ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. تحقيق : سعيد المندوب.

- الشاطبي. إبراهيم بن موسى. فتاوى الإمام الشاطبي. مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعةالرابعة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، تحقيق : الدكتور محمد أبو الأجفان.
- الشاطبي. إبراهيم بن موسى. الاعتصام. تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن. مكتبة التوحيد — البحرين. الطبعة الأولى. ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- الشاطبي. إبراهيم بن موسى. الإفادات والإنشادات. مؤسسة الرسالة — بيروت. الطبعة الثانية. ٤٠٨هـ/١٩٨٨م، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد أبو الأجفان.
- الشاطبي. إبراهيم بن موسى. الموافقات في أصول الشريعة. المكتبة التوفيقية – القاهرة. ٢٠٠٣م. والتعليق : فضيلة الشيخ عبد الله دراز. بدون رقم الطبعة.
- شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان. وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان. دار الثقافة – لبنان. تحقيق: احسان عباس. بدون رقم الطبعة وتاريخ الإصدار.
- الشيبي. كامل مصطفى. الصلة بين التصوف والتشيع. دار المعارف — القاهرة. الطبعة الثانية. ١٩٦٩م.
- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك. الوافي بالوفيات. دار إحياء التراث — بيروت. ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. بدون رقم الطبعة.
- ابن خلدون. عبد الرحمن. شفاء السائل لتهذيب المسائل. نشرة الأب خليفة. دراسة: الدكتور أبو يعرب المرزوقي. الدار العربية للكتاب. ١٩٩١م. بدون رقم الطبعة.

- العبيدي. حمادي. الشاطبي ومقاصد الشريعة. دار قتيبة - بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .
- العسقلاني. شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر . تقريب التهذيب. دار الرشيد — سوريا. الطبعة الأولى. ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م. تحقيق: محمد عوامة.
- الغزالي. أبو حامد محمد بن محمد. فضائح الباطنية. مؤسسة دار الكتب الثقافية - الكويت. تحقيق : عبد الرحمن بدوي. بدون رقم الطبعة وتاريخ الإصدار.
- الغزالي. أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين. دار المعرفة — بيروت. بدون رقم الطبعة وتاريخ الإصدار.
- الغزالي. أبو حامد محمد بن محمد. جواهر القرآن. دار إحياء العلوم — لبنان. الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. تحقيق: محمد رشيد رضا القباني.
- القشيري. عبد الكريم بن هوازن. لطائف الإشارات. هيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٨١م. تحقيق : الدكتور إبراهيم بسيوني. بدون رقم الطبعة.
- لسان الدين ابن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة. دار المعارف - القاهرة. تحقيق : محمد عبد الله عنان. بدون رقم الطبعة وتاريخ الإصدار.
- المجاري الأندلسي. أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن عبد الواحد. برنامج المجاري. دار الغرب الاسلامي - بيروت/ لبنان. الطبعة الأولى. ١٩٨٢م/ ١٤٠٠هـ. تحقيق: محمد أبو الاجفان.
- الهيثمي. علي بن أبي بكر. موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان. دار الكتب العلمية - بيروت. تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة. بدون رقم الطبعة وتاريخ الإصدار.

- الهيثمي. علي بن أبي بكر. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. دار الريان للتراث/دار الكتاب العربي – القاهرة / بيروت. ١٤٠٧هـ. بدون رقم الطبعة.
- اليعمري. إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. دار الكتب العلمية – بيروت. بدون رقم الطبعة وتاريخ الإصدار.